شمالي افريقيا : من جورج جبّور

هذه « الرسالة » ليست من شمالي افريقيا ، بل عن شمالي افريقيا – عن المؤتمر الثامن عشر لمؤسسة الشرق الاوسط الامريكية الذي عقد مؤخراً في جامعة جورجتاون بواشنطن ، وكان موضوعه : « شمالي افريقيا : الدولة والمجتمع » . وقد قدمت فيه ثمانية بحوث في سبع جلسات ، وعقب على هذه البحوث ثمانية عشر اخصائياً قبل ان يفتح باب المناقشة للحضور ، الذين اربى عددهم على الثلاثمائة ، اغلبهم من مؤسسات البحوث الامريكية ومن اساتذة الجامعات وطلابها .

افتتح المؤتمر بكلمة تمهيدية لرئيسه مجيد خدوري (جونز هوبكنز) ، وتلاه نائب رئيس جامعة جورجتاون بكلمة ترحيبية. وكان من المقرر ان يساهم السير هاملتون غيب (هارفرد) بملاحظات افتتاحية، لكن مرضه منعه من الحضور . والقيت كلمته بالنيابة عنه ، وكانت ذات طبيعة عامة .

وقد القت الخطاب الافتتاحي اليزابيث مونرو (اوكسفورد) . ودار خطابها حول اسئلة اربعة : اولاً، اين هي القوة في شمالي افريقيا ومدى مركزية الحكم : في تونس ثمة حكم مركزي قوي ، وهناك تحد للمركزية في مراكش. ثانياً، الهدف الذي يصبو اليه المجتمع ، واثر الاسلام واللغة في التعريف بالمجتمع المنشود . ثالثاً ، مشكلة ازدياد السكان ، والتخطيط والاشتراكية وتساوي الفرص . رابعاً ، نوع الايديولوجية التي يمكن للمغرب ان يحتذيها كمثال ، ومشكلة الوحدة المتكاملة. وفي هذا الصدد اعربت عن يقينها ان وحدة المغرب ستأتي يوماً ما، بينما ان ليبيا قد تمثل نقطة لقاء – وربما خلاف – بين الجزائر ومصر .

بعد ذلك بدأت اولى جلسات المؤتمر ، عن مشكلة اللغة في شمالي افريقيا . اما البحث الذي دارت حوله المناقشة فقد قدمه تشارلس ف. غلاهير، وكانت نقطة تأكيده هي الفصام بين المبدأ والواقع في لغة المغرب ؛ فبينما تؤكد دساتير دول المغرب ان العربية هي اللغة الرسمية ما تزال الفرنسية هي لغة المعاملات الرسمية . ثم تتبع الباحث التطور اللغوي لشمالي افريقيا وحاول تصوير الوضع اللغوي الحاضر بشكل تقريب احصائي ، فوجد ان من الـ ٢٩ مليوناً في شمالي افريقيا هناك اكثر من ٢٥ مليوناً يتكلمون اللهجة المغربية ، و ٦،٥٠ ملايين يتكلمون البربرية ، وحوالي مليونين يقرأون العربية الفصحى ، وحوالي ١٢ مليوناً يتكلمون الفرنسية ، وحوالي مليونين ونصف يقرأون الفرنسية. كما اكد الباحث على التطور الذي حققته السنوات الاخيرة في منحى انتشار قراءة العربية . فبالمقارنة مع المليونين الذين يقرأون العربية الآن لم يكن ثمة اكثر من نصف مليون شخص قبل عشر سنوات. واشار البحث ايضاً الى ان مشكلة العربية في المغرب هي ايضاً مشكلة ايجاد مدرسين اكفاء ، والى علاقة ذلك بالسياسة بين الدول العربية ؛ كما لاحظ الباحث ان « مكتب التعريب » في الرباط بمراكش يشكو من قلة تعاون الدول العربية في المشرق في مجابهة مشكلة التعريب ، باهمال هذه الدول للاسئلة والايضاحات التي يطلبها المكتب . وانتهى الباحث بعد ذلك الى مناهج التعليم في دول المغرب ، واختتم بحثه بملاحظة ان هناك نمطاً معيناً من السلوك الاجتماعي يقترن مع كل من العربية والفرنسية . وان المشكلة في الحقيقة هي مشكلة « الهوية » التي يختارها اهالي شمالي افريقيا . وقد

عقب على البحث الاستاذ فنسنت مونتييه (من جامعة دكر في السنغال ، وحالياً استاذ في جامعة كاليفورنيا بلوس انجليس) فاشار الى ان هناك الآن توسعاً كبيراً في المطبوعات باللغة البربرية – وهي اصلاً لغة غير مكتوبة ، ثم صارت تكتب بالحرف العربي ، وتكتب الآن بالحرف اللاتيني — ولاحظ ان فرنسا شجعت على كتابة اللهجة العامية ولكن المحاولة لم تثمر ، ورأى ان هناك ما يشبه «العربية الوسطى» بين العامية والفصحى ويمكن التفاهم بها في مختلف ارجاء الوطن العربي. وكان المعقب الثاني الاستاذ ريتشارد س. هاريل (جورجتاون) الذي اعرب عن رأيه في ان المغاربة يشعرون بالمشاركة في تراث المشرق العربي ، وان اختيار المغاربة للعربية هو امر اكيد. وفي المناقشات التي تلت اشير الى ان الاقبال على دراسة العربية في افريقيا السوداء (حيث ثمة حوالي ٤٠ – ٤٥ مليون مسلم) كلغة ديانة وثقافة يزداد بشكل ملحوظ ، لا سيما في السنغال ومالي .

في الجلسة الثانية بحث التنظيم السياسي . فقدم بحثان ، اولهما للاستاذ مانفريد هالبرن (برنستون) عن « ثورة التعصر في شمال افريقيا » ، حيث اكد ان كل الانظمة التي تنظم حياة الانسان لا يمكن لها ان تستمر في ثباتها الا اذا احتوت على قابلية داخلية لتولد وتمتص التحول المستمر ، وان ثورة التعصر هي العمل الايجابي الثوري الذي يحول المجتمع بشكل يستطيع معه ان يوفر اقنية مناسبة للتحول المستمر . وعلى هذا الاساس قسم الباحث الانظمة العالمية الى قسمين : نظام انتقالي حيث لا تستطيع السلطة السياسية ان تنسجم مع قوى التغير، ونظام متعصر حيث تتوفر الرغبة والمقدرة على ممارسة التطور الاجتماعي . ثم اكد الباحث على اسبقية السياسة في مقدرتها على تحقيق التطور الاجتماعي . وبعد مقدمته النظرية — التي اثارت كثيراً من النقاش فيما بعد — اسهب الباحث في استعراض الوضع في الجزائر واشار الى ان بن بيلا والجزائر اجتازا كثيراً من الصعاب وان يكن المستقبل ليس مضموناً بشكل كلي . ثم استعرض وضع مراكش وكيف ان التطور الاجتماعي قد لا ينسجم مع طبيعة الحكم الملكي . وبعد ان بحث وضع ليبيا ، لاحظ ان تونس تحقق تقدماً مخططاً ، وان الافكار السياسية في الدولة التونسية قد تبلورت ، وانها الدولة المغربية الوحيدة التي يمكن اعتبارها متعصرة بشكل معقول .

وقدم البحث الثاني الاستاذ دوغلاس أشفورد (كورنيل) وكان بعنوان «الاوجه السياسية لتطور الريف في شمالي افريقيا » . وفي سياق بحثه تطرق الى علاقة التخطيط باهل الريف ، ففي تونس وضعت الحبوس (الأوقاف) واراضي القبائل تحت اشراف الحكومة وصدر تشريع لتجديد وتحرير الاراضي القبلية وبدأت محاولات اولى لانشاء تعاونيات زراعية في المنطقتين الوسطى والجنوبية من تونس. اما في مراكش فرغم ان بوادر الاصلاح الزراعي بدأت منذ ١٩٥٦ الا ان الاعتبارات السياسية منذ ١٩٦٠ — ١٩٦١ اخذت تشكل عقبات خطيرة في سبيل تنظيم الريف بشكل جدي. وفي الجزائر مئات من لجان الادارة الذاتية (وقد اعيد تنظيمها في ١٩٦٢ وفي ١٩٦٣) ، والمشتركون في هذه اللجان الزراعية يتمتعون بامتيازات عديدة عن المزارعين العاديين . واختتم الباحث حديثه بان خطوات الادارة الذاتية في الجزائر قد تكون محرك التطور في القارة الافريقية باسرها .

كان المعقب الاول الاستاذ ك. هـ. مور (كاليفورنيا ببركلي) ، فانتقد هالبرن لا سيما في تأكيده على اسبقية السياسة واصر على ضرورة ايجاد تنظيمات مجتمعية مساعدة للسياسة ، كذلك لاحظ ان التعصر لا يقتضي عملاً ثورياً بالمعنى المفهوم للثورة . ثم عقبت الاستاذة لورنا هان (الجامعة الامريكية بواشنطن) وقد رحبت بآراء هالبرن

واشارت الى ان العمل الثوري لا يقتضي ان يكون عمل عنف . ولاحظت ان هناك ثلاثة اطوار في دور الدولة في توجيه التعصر : الاصلاح ، والتخطيط ، والاشتراكية . وكان المعقب الثالث الاستاذ وليم زارتمان (جنوبي كارولينا) ، فانتقد هالبرن في تصويره للحالة في مراكش — مثلا — ولزعمه بان كل الصعوبات هناك تنطبق على الحالة في فرنسا .

وكانت الجلسة الثالثة عن دور الاسلام الاجتماعي في شمالي افريقيا . وقدم بحث الجلسة الاستاذ ل. كارل براون (هارفرد) ، وفي مجال بحثه اشار الى ان دور الصوفية الاجتماعي في المغرب ازداد مع ازدياد اللامركزية السياسية في الحكم ، وان المرابطين قد شغلوا فراغاً اجتماعياً هاماً خاصة منذ القرن السادس عشر حتى الحكم الفرنسي . اما حركة الاصلاح الديني فقد تأثرت بمثيلاتها في الشرق وان لم تتبلور بشكل فعال حتى عشرينات وثلاثينات هذا القرن في مراكش والجزائر . وقد اثرت ، بشكل هام ، في تضاؤل نفوذ الصوفية التي اوشكت على الانقراض منذ ١٩٤٠ (ما عدا الحركة الكتانية في مراكش التي كانت تدعمها السلطات الفرنسية) . ولاحظ الباحث ان حركة الاصلاح الديني لم تساهم كثيراً في بناء ايجابي للقومية في دول المغرب ، اذ انها ، بعد تحطيم الصوفية ، توارت في اكثر الاحيان مفسحة المجال للعقلية الزمنية الحديثة التي لا تعتبر الاسلام كمفهوم مناقض ، بل كمفهوم غير وارد . وهكذا فان هذا الموقف يبدو جليا في نظام التعليم ، وفي ازدياد تبني التشريع الغربي ، كما يبدو في الغاء الحبوس في تونس ، وفي هجر الواجبات الدينية من قبل الشباب والمتعلمين . ومع هذا فليست هناك حركة ضد الدين ، وما يزال الجميع يقرون بالاسلام كجزء من التراث الحضاري والقومي . وان ما يشبه الفشل الذي كان نصيب محاولة بورقيبة في الغاء صيام رمضان لدليل على شعور ديني في الحياة اليومية . وكان من جملة المعقبين على البحث الاستاذ المراكشي محمد الفصوص الذي اشار الى ان من اهم مصادر القوة في الاسلام هي حمايته لتنوع المذاهب والاجتهاد الشخصي ، ولاحظ ان رد الفعل الشائع الآن لدى المسلمين تجاه الحضارة الغربية هو اعطاء الاسبقية للقضايا العملية المباشرة ومحاولة « هجر » المشكلة نظرياً . لكنه اقترح عوضاً عن ذلك ان يستخدم علم الاجتماع والعلوم المشابهة في تفسير اجتماعي للاسلام وان ذلك قد يشير بدوره الى بعض الحلول .

كانت الجلسة الرابعة عن التخطيط الاقتصادي . ابتدأت ببحث قدمه الاستاذ ا.ج. ماير (هارفرد) ، وقد اسهب في استعراضه لبرامج التخطيط الاقتصادي في كل دولة في شمالي افريقيا على حدة . ففي ليبيا انشىء في ١٩٦٢ مجلس تخطيط قومي ، وفي ١٩٦٣ نشرت اول خطة للسنوات الخمس القادمة التي تتضمن انفاق حوالي ٥٠٠ مليون دولار — اكثرها من عائدات البترول — في خمس سنوات . وفي تونس نشرت في ١٩٦٢ خطة للسنوات العشر ، وهي انضج خطط شمالي افريقيا وربما العالم العربي باسره ، وتحاول الخطة رفع الانتاج القومي بمعدل ٦ ٪ ، وتتوقع الخطة ان التمويل الاجنبي سيغطي ١٢٥ مليون دولار سنوياً في المراحل الاولى (من مجموع سنوي يبلغ حوالي ٢٦٠ مليون دولار) حتى يتدنى الى ٧٥ مليون في المراحل الاخيرة . في الجزائر انشئت ادارة عامة للتخطيط والدراسات الاقتصادية في ١٩٦٢ . ثم في اوائل ١٩٦٣ انشئت ادارة للعقارات المهجورة ، ولكن لم تظهر للآن خطة منسقة للتنمية الاقتصادية . والوضع الاقتصادي الحاضر يعتمد على مساعدات فرنسا (حوالي ٣٠٠ مليون دولار سنوياً) وعلى ما يرسله للجزائر اكثر من نصف مليون عامل جزائري في فرنسا . واوضح الباحث ان خطة التنمية الاقتصادية يجري الآن اعدادها . فقد قدم وزير الاقتصاد الوطني ميزانيته

للتطور الاقتصـــادي الى مجلس النواب في آذار (مارس) ١٩٦٤ . وتبلغ الميزانيـة حوالي ٤٠٠ مليون دولار سيأتي اكثر من ثلاثة ارباعها كتمويل خارجي . اما في مراكش فرغم البـدايات الحسنة نحو التطوير في ١٩٥٨ — ١٩٦٠ ، الا ان الجو السياسي منذ ١٩٦٠ لم يكن مشجعـاً ، وهكذا فان مشروع ١٩٦٠ — ١٩٦٤ لا يبدو عـــاملا فعالاً في الاقتصاد المراكشي اليوم . واختتم الباحث استعراضه ببعض النتائج من التخطيط الاقتصادي، وكان من اهمها ان ليس هناك تآزر اقليمي بين دول المغرب في خطط التنمية ، بل ان ثمة مـــا يشبه التنافس على الاسواق الموجودة، وان النوع الوحيد من دراسة التكامل الاقتصادي في المغرب يقوم به الآن المكتب الاقليمي (طنجه) للجنـــة الامم المتحدة الاقتصادية لافريقيـــا . وان اعتماد دول المغرب على التمويل الاجنبي قد يعني مجالاً جديداً للمنافسة بين الدول الغربية والشرقية .

وكان من اهم التعليقات على البحث ما قاله الاستاذ شارل هيساوي (كولومبيا) من ان التخطيط هو الآن «موضة» اليوم لدى الدول الجديدة، وان التخطيط يقرن عادة بالاستقـلال لدى هذه الدول بينما يقرن عهد الاستعمار بنظام الاقتصاد الحر. وانتقد خطط التنمية في البلدان الحديثة بأنها — بوجه عام — غير جدية من وجهة نظر اقتصادية ، مع ان التخطيط بحد ذاته ليس خطيئة .

وكانت الجلسة الخـامسة عن النفط في اقتصاد شمالي افريقيا ، وكان محور الجلسة هو بحث الاستاذ جون ليختبلو (مؤسسة بحث صنـاعة الزيت) ، فأشار الى ان انتاج الزيت في شمالي افريقيـا الآن يبلغ حوالي مليون ونصف مليون برميـــل يومياً (او حوالي سدس انتاج الشرق الاوسط) وهـذا ليس بالشيء القليـل ، وانه قـد يؤثر على اسواق الشرق الاوسط ، لا سيا نتيجة قربـه من اوربا . ثم بحث بشكل مفصل في دور الزيت في اقتصـاد الجزائر وليبيا . وختم بحثه بملاحظات عن مـدى الضمانة في امداد البترول لاوربا. وقارن ذلك بنفط الشرق الاوسط ، فلاحظ ان دول شمالي افريقيـا اعضاء في الجامعة العربيـة وان كل دول المنطقـة اعضاء في منظمة الدول المصدرة للنفط (اوبيك) ما عدا الجزائر ، التي بدأت بعض المحادثات تمهيداً لانضمامها لهذه المنظمة. ولاحظ ان المصالح المتشابهة والعواطف المتشابهة بين دول الشرق الاوسط وشمالي افريقيا تحمل في طياتها امكانية التآزر في مواقف هذه الدول اذا دعت الحاجة ، وان يكن تنويع مصادر البترول يقلل — نظرياً — من امكانيـة قطع البترول عن اوربا . وعقب على البحث الاستاذ ماير فلاحظ ان دور (اوبيك) في الحقيقة لم يتضح بعد، واشار الى ان هناك ما يشبه الثقة المتبادلة بين شمالي افريقيا وغربي اوربا مما يزيـد في ضمانـة استمرار سيل النفط . وعقب على البحث ايضاً جـون ريكا (قسم النفط والغاز بوزارة الداخلية الامريكية) فلاحظ ان كلفة انتاج نفط شمالي افريقيا اكثر من كلفة انتاج نفط الشرق الاوسط ، وان هذا الفرق يؤثر في قلة كلفة نقل النفط من شمالي افريقيـا الى اوربا . واشار الى الكميات الكبيرة من المـال التي تنفقها شركات البترول في فعاليات غير نفطية، كبناء بيوت وطرقات وغيرهـا . ولاحظ ايضاً ان ازدياد الاعتماد على تطوير الاسمدة من بقايا النفط محلياً قـد يعني زيادة في ضمانة شركات البترول ضد التأميم . واشير في سياق المنـاقشة الى ان نيجيريا قـد تصبح منتجة ضخمة للنفط، وان فكرة بن بيلا في انشاء صناعة استيراد ضخمة في شمالي افريقيا هي « غير واقعية » ، لأن الصناعة الضخمة يجب ان تكون قريبة من مناطق الاستهلاك .

الجلسة السادسة كانت عن معاني التوسع السريع في المدن . قدم البحث الاساسي روجـير له تورنو (برنستون) ، ولاحظ ان التوسع السريع في المدن بدأ منـــذ ١٩٣٠ وان كثيراً من المدن

« التقليدية » قد فقدت طابعها ، كمدينة فاس في مراكش . من معاني هذا التوسع السريع ان التركيب الاجتماعي قد تغير ، وان من المشاكل الهامة الآن مشكلة ايجاد بيوت كافية وصحية لسكان المدينة . ولاحظ ايضاً ان النساء قد تحررن بشكل سريع من التقاليد القديمة، وان جو المدينة يساعد على هذا التطور . كما بين ان الروابط العائلية والقبلية تتضاءل بعد الجيل الاول من الاقامة في المدينة . وأشار الى مشكلة الفرد القادم الى المدينة، بأنه يصادف بعض الحيرة في البداية ، ثم يتكيف البعض مع المجتمع الجديد، بينما يزداد بؤس وتعاسة الآخرين . وختم حديثه بالاشارة الى ضرورة امداد القادمين الجدد — او الذين ينوون مغادرة قراهم — بمعلومات عما ينتظرهم في المدينة . وقد عقب على البحث اقبال احمد (باكستاني) ، فلاحظ ان هذه الجماهير الآتية من الريف تشكل طبقة يمكن اثارتها سياسياً بسهولة ، لانها غير مكتفية بحياتها اليومية، وان الحركات المتطرفة — كالاخوان المسلمين وجماعة اسلام في مصر وباكستان — تجد مرتعاً خصباً لدى هذه الفئات ، واشار الى دور الاحزاب ونقابات العمال في تنظيم هذه الجماهير بشكل بناء وايجابي. ولاحظ ايضاً ان اتحادات العمال في كثير من الدول النامية ليست رد فعل للتصنيع لكنها عامل في تسريع التصنيع ، وان على اتحادات العمال ان تشغل العمال المتعطلين عن العمل بفعاليات اجتماعية مناسبة كالرياضة والتعليم .

الجلسة الاخيرة كانت عن حق الملكية والتعصر الزراعي. وكان الباحث الرئيسي جاك بيرك (كوليج ده فرانس) ، وألقى بحثه عن النظام الريفي في المغرب ، بالفرنسية . وتطرق خلال البحث الى النظام الاسلامي في ممارسة حق التملك وانواعه وكيفية تطبيقه في المغرب في القرون الوسطى والحديثة ، وكيف ان النظم الاوربية بدأت تعدل شيئاً فشيئاً من النظام السابق . وبحث بعد ذلك ضرورة الاصلاح الزراعي ، ليس فقط بسبب هجرة كثير من المالكين الاجانب بل ايضاً لأسباب داخلية تتصل بتركيب المجتمع في المغرب ولزيادة الانتاج . ثم اسهب في شرح كيفية تطبيق الاصلاح الزراعي في شمالي افريقيا واشار الى تجربة « لجان الادارة » في الجزائر كتجربة متقدمة في الاصلاح الزراعي ، واوضح ان نجاح التجربة في سنتيها الاوليين يمكن ان يعزى الى حجم المنطقة التي تغطيها اللجنة والى التماسك الداخلي للجنة ، وانه ما يزال هناك مجال لتحسين التعاون بين هذه اللجان وبين الادارة الحكومية المحلية . وصرح الباحث انه بتطوير هذه اللجان قد تنشأ في المغرب « جماعة » جديدة في التركيب الاجتماعي ، تساعد في تطوير الحياة الريفية — والسياسية — بشكل فعال . وكان من جملة الذين علقوا على البحث كارلتون كون (بنسلفانيا) الذي اوضح ان محاولات « فرنسة » الجزائر لم تنجح لان الاستعمار قليلاً ما نجح في التأثير بشكل دائم على اقليم مأهول بكثافة .

واذا كان لا بد من تعليق سريع على المؤتمر ، فانه يمكن القول : اولاً ، انه لم يكن ثمة اي بحث مدروس عن وحدة المغرب وعن علاقة المغرب بالوحدات الاخرى المقترحة التي تشغل كثيراً من التفكير في الدول الحديثة : كوحدة الدول العربية، ووحدة الدول الافريقية . ثانياً ، ان الجيل الجديد من اخصائيي الشرق الاوسط في امريكا — في عقدهم الثالث او الرابع — يحاولون دراسة المنطقة عن طريق استشفاف صورة المجتمع المتطور لنفسه من خلال تعبير مثقفيه وقواده ، وليس فقط عن طريق تأثير سياسة الدول الكبرى على المنطقة . وهكذا فاننا نشهد ان اكثر الاخصائيين الجدد يدرسون او يتقنون العربية مثلاً، لا كلغة ضرورية للبحث في الفلسفة الاسلامية او الادب العربي فقط — كما كانت الحالة سابقاً — بل كلغة ضرورية لفهم سياسة المنطقة داخلياً ودولياً ولمعرفة احوالها الاجتماعية .